ممرّات العلب

الياس الماس محمد

إنّها الغرفة السادسة وعقارب الساعة هي الأخرىٰ تشير إلىٰ السادسة.

في الغرفة الأولىٰ ترك ورقتين، وفي الثانية تسلّم أربع ورقات، وفي الغرفة الثالثة ارتعشت عيناه الصغيرتان الملفوفتان بنظّارة سميكة، وفي الغرفة الرابعة تركوا له هامشاً يحمل رقم ١٦، وفي الغرفة الخامسة وضع ثلاث أوراق داخل محافظ زجاجيّة في مقدّمة الممرّ، وفي الغرفة السادسة سقطت نظّارته علىٰ الأرض وتهشّمت إلىٰ مئات الأجزاء الصغيرة، بل المتناهية في الصغر.

.. ومات السيد عبد السميع السيد محمود الطيني. ترك ثلاثين عاماً وإضبارةً شخصيّةً وراتباً تقاعديّاً وثلاثة أزواج من الأحذية ومجموعةً من الملابس المرتّقة: بدلتين قديمتين وثلاث ربطات عنق لم تُغسل منذ سنوات وحزمةً من الألبسة الداخليّة وزوجين من الجوارب السوداء.

الأحذية بيعت فيما بعد كأشياء لا نفع منها لرقّاعٍ مسنّ في المدينة. وأمّا الملابس فهي الأخرىٰ قد بيعت في سوق الملابس المستعملة، باعها الابنُ الأصغر بخمسة دنانير وستمائة فلس، اشترىٰ بها مجموعةً من طيور الحبّ الّتي يهواها، طيورٍ ذات أجنحة صغيرة صفراء وخضراء مخطّطة باللون الأحمر الفاتح.

أمّا صورة السيد عبد السميع السيد محمود الطيني الكبيرة ذات الإطار الثمين الّتي تتوسّط غرفة الاستقبال ـ تلك الصورة المؤطَّرة بإطارٍ من خشب الساج اللامع المزخرف الجميل الذي كلّف ثلثَ راتب المرحوم وكان يحرص أشدّ الحرص علىٰ تلميعه بين فترة وأخرىٰ ويقف أمامها مزهواً، فلقد استعملتها العائلةُ الصغيرة غطاءً لنافذة المطبخ الّتي كانت تدخل من خلالها الفئرانُ والطيور والقطط الصغيرة لتعبث بالمطبخ.

في اليوم التالي اكتشفت العائلة الصغيرة ثقوباً صغيرة في غطاء النافذة، أحدثتها الفئرانُ في صورة السيد محمود الطيني بعد أن قرضت خشبَ الساج اللامع.

في الطابق الثاني، أعطوه رقم ٥٤، كتبوها في إضبارته، أوراقه، أوّلياته علىٰ قرصٍ دائريٍّ عُلِّق حول عنقه، يتأرجح القرص عندما يقف. يتحرّك، بصمت يطرق باباً، عليه الآن أن يسير إلىٰ جهة اليمين، ممرّ قصير طوله خمس عشرة قدماً ونصف القدم ومن ثمّ إلىٰ اليسار قليلاً بأربع خطوات طولُ كلّ خطوةٍ ثلاثون سنتمتراً حتىٰ يبلغ الغرفة السابعة.

ثمّة مجاميعُ من الكلاب المتوحّشة والأليفة تمرّ من أمامه، مسرعةً أو بطيئةَ الحركة. أعناقها مطوّقة بأحزمة جلديّة تدلّت منها قطع معدنيّة مرقّمة، رؤوسها كثيفة الشعر جاحظة العيون. أنيابها معقوفة أو مخبوءة، بيضاء حادّة، غليظة من الأعلىٰ وتنتهي بنتوء حادّ علىٰ شكل إبرة مستدقّة. ثمّة كلابٌ أخرىٰ مرقّعةٌ مُصابة بالجذام، مرسَلَةٌ إلىٰ قسم الحرق، وقد قُسّمت في سيرها علىٰ أساس حجمها: فهي إمّا ضخمة جدّاً، وإمّا متوسّطة، وإمّا نحيلة جدّاً؛ بطيئة في سيرها، تشمّ الجدران؛ تلتقط الأشياء من الأرض. تقف الكلاب فجأة. تتأرجح أضواءُ مصابيح ثلاثة، ترفع من أسفل الجدار الأيسر ثلاثة قضبان حديديّة فضيّة اللّون، تدخل مجموعة الكلاب المرقّطة، تستمرّ بقيّة الكلاب في سيرها، ويستمرّ هو أيضاً في مسيره.

لا يعرف بالضبط متىٰ قرأ الكلمات التالية: «الضوء الساطع ظلمة». لقد نسي قائلها، لكنّه أقسم أنّه سوف يغسل ذاكرته المتورّمة بالجفاء جيّداً ليحتفظ بكلّ جملة مؤثرة يعثر عليها. وفي صباح هذا اليوم الأزرق الفاتر، حاول أن يلتقط من ذاكرته تلك الصحوةَ الاستثنائيّة؛ أراد أن يتذكّر متىٰ وأين قرأ تلك الكلمات، لكن الخيبة كانت تلازمه. انتهىٰ من التهام فطوره، وقف قبالة الضوء مبتسماً وقال: «الضوء الساطع ظلمة».. فرك عينيه وخرج إلىٰ الشارع، فرك عينيه الدبقتين مرّةً ثانية حينما خلّفت سيارة مسرعة كومةً من الغبار الأصفر تطايرت من العجلة الخلفيّة. فركها للمرّة الثالثة وقال مبتسماً: «الضوء الساطع ظلمة». وحين عاد من العمل وقف قبالةَ المرآة متطلّعاً إلىٰ عينيه اللّتين تورّمتا من الفرك المتواصل. حدّق في عينيه جيّداً دون أن يبتسم. أطفأ الضوء بعد أن هيّأت له زوجته قطعة طينٍ مبلّلةً بمادّة طبيّة.

في النصف العلوي من القاطع الخشبي الأوّل وبجانب السلّم الكهربائي الصاعد لاحظ إشارةً ضوئيّة حمراء خاصّة، فكان عليه أن ينتظر قليلاً. وعند الباب الرئيسي أوقفه كلبٌ ضخمٌ الجثّة، أنيابه معقوفة، لسانه الوردي الطويل يرتعش، عيناه جاحظتان، توقّف الارتعاش الغريب لحظة ثمّ ما لبث أن عاد إلىٰ عيني الكلب الّذي طُوّق عنقُهُ بسلسلة فضيّة طويلة تمتد حتّىٰ قضبان الباب الرئيسي في

حلقات سميكة متداخلة. يقترب الكلب، يلعق أصابعه، يفرز سائلاً لزجاً يسيل بين أصابعه، تتداخل مخالبُ الكلب في أسفل إبطيه، يخفض رأسه، ينزل عن الكرسي. يتزحلق هابطاً مربّعات المرمر، والساعة تشير إلى السابعة، وبعد خمس دقائق تصير الساعة السابعة وخمس دقائق. . .

لابنهِ الصغير بشرة بلون القمح، يتقافز هنا وهناك فوق الثلج، جمع كرةً من الثلج، وضع قبّعته الصغيرة على كرة الثلج، رسم أنفاً من الثلج، أنفاً طويلاً بعض الشيء فابتسم الطفل. جمع كومة أخرى من الثلج. فصنع من الثلج دمية أخرى، دميةً على شكل فتاة صغيرة. جلس الطفل العاري قبالة الدمية يغني ويغني.

ثلاثون عاماً بين هذه الأضابير الصفر ذات الرائحة الّتي تشبه رائحة احتراق الفئران الصغيرة، ثلاثون عاماً، ١٠٩٥٠ يوماً، ٣٦٠ شهراً، ٢٦٢٨٠٠ ساعة. وغداً يا عبد السميع بعد خدمة ثلاثين عاماً، تُحال على التقاعد. لقد وصل الأمر الوزاري بذلك قبل أيّام، وغداً سوف تنعم بصباح دافئ في الفراش القطني الممتدّ على سعة سريرك. عشرات آلاف من الساعات بين الأوراق. غداً لن توقّع في سجلّات الدوام الرسمي على حضور أو انصراف. ٣٦٠ شهراً بين الأوراق والممرّات وها أنت تترك بينْ تلك الأضابير والأوراق الّتي لها رائحة تشبه رائحة احتراق الفئران الصغيرة، جسدك النحيل المجزّأ. مازالت كلّ إضبارة أو ورقة تحتفظ بلمسة منك، ثلاثون عاماً، وها أنت ترتعش، ترتعش من الأعماق. وها أنت تغادر غرفة الأضابير الّتي بقيت فيها السنوات العشر الأخيرة.

بعد ثلاثة أشهر وجُد السيد عبد السميع ميتاً في حمّام بيته.

تنغرس مخالب الكلب بين أضلاع الصدر، تنزل خطوط حمراء منه، من فتحات الجلد، فتحات منتشرة مغطّاة بأكياس صغيرة من القيح، امتلأ قسم منها بسائل أسود اللون. يقترب أحدهم حاملاً حزمة أوراق، يرمي ثلاث أوراق ثمّ يكمل سيره إلى الممرّ الجانبي، والكلب لمّا يزل يلعق الوجه والعيون والأنف. تنفتح نافذة جانبيّة، يتأرجح قرصُ المستطيل. قرص المستطيل الّذي يحمل رقم ٥٤. يبصق، يمسح طرفي فمه. تُغلق النافذة. والكلب لمّا تزل مخالبه الحادّة السوداء تغوص في الجلد، بين أضلاع الصدر، أسفل الأنف، قرب العينين، يختلط السائل الحليبي اللّزج بالدم، تتطاير الأوراق بين الممرّات. ٥٤، أربعة وخمسون، الممرّ السادس، الغرفة السابعة، الطابق الثالث، ممرّ قصير طوله عشرون قدماً. الساعة تشير إلى التاسعة والربع، والثلث، وأربعون دقيقة. تسعون خطوة، ألف، مئة ألف خطوة، ١٠٣١٢ ليلة، ١٠٣١٣ نهاراً. تغوص الأنياب، تغوص عند الشعبة العاشرة، تُغلق النافذة، تقترب الجدران، تلتصق، تقترب الكلاب، ترتعش الأصابع، يحاول التخلُّص من الكلب ولكن بدون جدوى. قبل ساعة أعطوه الرقم ٥٤، نعم ٥٤. المخالب تغطّي الوجه تماماً. يقترب أحدهم بخطوات وئيدة، هادئة، يسير وفق خطٍّ مستقيم أبيض في منتصف الممرّ. يقف لحظة، يكمل سيره، خطوات بطيئة، بطيئة جداً. يضع سلسلة على رقبته تدلّت منها قطعة معدنيّة أخرى تحمل رقم ٥٣، سلسلة فضيّة ذات حلقات دائريّة متداخلة، سلسلة تمتدّ حتّى قضبان الباب الرئيسي. ثلاث وخمسون حلقة، في نهاية كلّ عام يرفعون حلقة. ابتعد عنه بخطوات سريعة. يسير وفق خطٍّ مستقيم أبيض في منتصف الممرّ، توقّف، سُلّم ينتهي بقبو ممتلئ بالماء. .

زحف الطفل العاري بطيئاً نحو الدمية. الدمية على شكل فتاة صغيرة ذات ضفائر شقراء متوهّجة من الثلج الأبيض، رصّعتْ حفرتا عينيها بزجاجتين زرقاوين لامعتين. اقترب الطفل أكثر، رفع الدمية إلى الأعلى. ضمّها إلى صدره، لعقها من الرأس، سقطت من بين أصابعه الناعمة. غضب الطفل بعض الشيء وبحركة شديدة من يديه، زحف نحو الدمية مرّة ثانية. تحرّكت الدمية، ابتسمت الفتاةُ الصغيرة ذاتُ الضفائر الشقراء واقتربت منه. احتضنها بشدّة، أشار بأصابعه إلى جهة النافذة، عضّت بنواجذها البيضاء على خدّ الطفل. ابتسم الطفل الّذي لبشرته لون القمح وتكوّر في نعاس هادئ عند أسفل كرسي خشبي عتيق. خرجت الفتاة الصغيرة ذات الضفائر الشقر من النافذة بعد أن تركت قبلةً ساخنة على راسه.

بغداد

المسيرة

صالح القاسم

سَلَخْتَ الجلدَ الأُسريَّ المنعَّم بحنان الأمومة ودفء الأخوّة عن بدنك، ورميتَ أسمالَك الممزّقة العابقة بعطر الحارات.

ولَّيْتَ وجهَك لظى الشّمس ـ ولهفة انتظار بنت الجيران تمرق من أمامك في شارع الثّلاثين. وصرتَ تجلس في غرفة قميئة غطّت جدرانَها الملصقاتُ، والعباراتُ، وتناثرت على أرضيتها المبلطة أعقابُ السّجائر، وبقعُ التّنخمات، والبصاق، ويعبق فضاؤها برائحة الأقدام والفساد. انحشرتَ في عمارة إربدية كبيرة لا تدركها الأنظار.

تلتقون، تجتمعون، تتناقشون، ترتعشون، تضحكون،